المحاضرة الثانية عشر

المنهج التاريخي

تمهيد:

لقد ظهر **المنهج النقدي التاريخي** ضمن الساحة النقدية الأدبية الحديثة، إبان **القرن التاسع عشر ميلادي**، كرؤية نقدية بديلة عن النقد الأدبي الفني، ويعود ذلك لارتباطه بحركية الفكر النقدي العلمي التي لها علاقة بتطور منظومة الوعي التاريخي بحيث إن: «الإطار الفكري والنقدي انبثق داخله هذا الوعي التاريخي »[1].وعلى هذه الخلفية الفكرية النقدية التاريخية، برز اسم " **غوستاف لانسون** " كرائد بارز لحركة النقد الأدبي التاريخي، بحيث إنه لم: « يخترع أو يبتكر المنهج التاريخي، وكل ما فعله أنه استخلصه من التفكير السابق عليه في دراسة الأدب، ومن ثم بدأ المنهج التاريخي في دراسة الأدب يتبلور، فصار النقد الأدبي في تلك الفترة مشبعا بالروح الوضعية »[2]،

-مبادئ المنهج النقدي التاريخي:

تنهض المنهجية النقدية الأدبية التاريخية في عمليات التحليل والتفسير للظواهر الأدبية من خلال النظر في مسارات الجدل القائم بين **المبدع وإبداعه**، من خلال عمليات التأثير والتأثر الحاصلة ضمن مسار الحلقات التاريخية والاجتماعية، ومن ثم يمكن تتبع مختلف الأطوار الإبداعية التي تمر بها مختلف

---

[1] - صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، أطلس للنشر، القاهرة، ط4، 2005، ص19.

[2] -عبد المجيد حنون.اللانسونية وأثرها في رواد النقد العربي الحديث،الهيئة العامة للكتابالقاهرة، 1996، ص66

الأجناس الأدبية والفنية. هذا بالإضافة إلى محاولة التعرف على أهم الانطباعات المستخلصة من بعض الأعمال كما للمبدعين، هذا ما يجعل إطار المقارنة يتحقق على مستوى الفهم والتفسير لهما، ليأتي بعد ذلك الاستدلال على سيادتها في عصر من العصور. لذلك وأمام هذه الأطر التكوينية التاريخية للإبداع، فإنه يمكن التأكيد على أن المنهج الفني لم يلتفت إلى دراسة هذه المسارات الفكرية التي تبقى لها علاقة بالإطار **الفني والجمالي** للعمل الأدبي، هذا ما استدعى فيما بعد لأن يلجأ الناقد إلى استثمار العلوم التاريخية من أجل بناء **منهجية نقدية تاريخية** تأخذ على عاتقها دراسة التكوينية التاريخية الفنية للإبداعات الأدبية، ذلك أنها: « ترمي قبل كل شيء إلى تفسير الظواهر الأدبية والمؤلفات وشخصيات الكتاب، فهي تعين على الفهم والتفهم أكثر من عنايتها بالحكم والمفاضلة...والنقاد الذين يجنحون إلى هذا النقد يؤمنون بأن كل تفسير من الممكن بعد ذلك أن يخرج منه القارئ بحكم نفسه »[1]. **فالمنهج التاريخي** وفق هذا التصور النقدي ينهض في عمليات التفسير للوقائع الأدبية على استثمار الحوادث السياسية والاجتماعية والثقافية البارزة، أي أخذها كمرجعيات فكرية يمكن من خلالها بناء فهم وتفسير للتكوينية الفنية التاريخية للأعمال الأدبية. هذا ما يعني في جانب آخر أن هذه المنهجية النقدية التاريخية تعطي أهمية في التفسير للعناصر الفنية من منطلق أن الإحاطة « بالتذوق والحكم ودراسة الخصائص الفنية تبقى ضرورية في كل مرحلة من مراحل المنهجية النقدية التاريخية »[2]، ذلك أننا لو أردنا دراسة واقعة

---

[1]– **يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر، من اللانسونية إلى الألسنية.رابطة إبداع.دط.الجزائر.2002ص:19**

[2]– **ينظر: عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي، ص288.**

أدبية من خلال مختلف المراحل التاريخية التي تمر بها فإنه يلزمنا تتبع **تكوينيتها الجنينية التاريخية** والفنية بدءا من: جمع النصوص الإبداعية ثم محاولة ترتيبها ترتيبا **كرونولوجيا** ثم تحريرها؛ أي ردها لأصحابها الأوائل، ثم جمع آراء المتذوقين لها من أدباء ونقاد – وهذا طبعا – على اختلاف عصورهم في تعاطيهم لهذه الوقائع الأدبية، ثم الوصول إلى تحديد الظروف/ الأوضاع/ الحالات التي صاحبت تلك المراحل التاريخية للإبداع الأدبي، مع محاولة معاينة درجة تذوق هذه الإبداعات من خلال النقاد ضمن مرحلة تاريخية معينة ومرحلة أدبية ونقدية محددة، كل هذا يمنح للناقد القدرة على إقامة موازنة نقدية بين مختلف الوقائع الأدبية سواء على المستوى الفكري كما الفني. مما يعني أن العملية النقدية التاريخية، التي يتمثلها الناقد تأخذ في الفهم والتفسير بالجوانب الفنية، كما الفكرية التاريخية، لذلك نجد الكثير من النقاد التاريخيين، يعلقون أهمية فنية وأخرى تاريخية كبيرة على الظروف السياسية/ الاجتماعية/ الثقافية في تفسير التكوينية الفنية والفكرية التاريخية للإبداعات الأدبية، فعندهم أن: « الكتاب والمؤلفات كثيرا بل غالبا ما تكون أكثر دلالة من الناحية التاريخية والإنسانية العامة، لأنها ولأنهم يُعتبرون مرآة أصدق لعصورهم »[1]. مما يعني أن التاريخ ينهض في عمليات تفسير المؤلفات والمخطوطات والكتب من الفترة التاريخية التي أنتجت فيها هذه الأعمال، كما أنها في جانب آخر تعكس الأطر السياسية/ الاجتماعية/ الثقافية، مما يجعل موضوعاتها وأساليبها ورؤاها الفكرية تعبر عن حقيقة الفترة التاريخية، كما تعكس بحق مختلف المرجعيات الفكرية والفنية لهذه الإبداعات، ذلك أن: « غاية التاريخ

[1]– ينظر: يوسف وغليسي: **النقد الجزائري المعاصر، ص19**.

هي الكشف عن الوقائع الأدبية وربط أصولها التاريخية بالمواقف الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية »[1]. لذلك وفي الوقت الذي يقوم به الناقد بتحليل هذه الأعمال من خلال هذه الاعتبارات، فإنه قد يتعرض للخطأ في تقييم بعض الآراء النقدية السائدة في تلك الفترة التاريخية المحددة، وهذا قد يكون من خلال عدم وعيه بحقيقة الوضعيات الأدبية والنقدية للإبداعات البارزة في تلك الفترة التاريخية المحددة، أو ربما يكون غير مُلم بمختلف المعارف الفكرية/ اللغوية/ النقدية السائدة، مما يجعله ينحرف عن السبيل النقدي التاريخي الصحيح القائم على البناء التفسيري للوقائع الأدبية، التي تعكس بحق كنه الفترات التاريخية/ الاجتماعية/ الثقافية. ومن ثم يبقى: «اكتشاف الأصول التاريخية للحقائق الأدبية يتم عن طريق تتبعنا لعملية التطور التاريخي والتطور الأدبي النقدي في الوقت نفسه »[2]، هذا بالإضافة إلى أن كل الحوادث السياسية/ التاريخية/ الثقافية تبقى تشكل بالنسبة للإبداعات الفكرية والأدبية سلطة فكرية وفنية، كما أنها في جانب آخر تعين على بروز فن أدبي بعينه في تلك الفترة التاريخية، ومن ثم قد تدفع به إلى الخلف، وبالتالي يبقى الناقد يتأرجح بين هذه الأطر التاريخية، مما يستلزم منه أن يأخذ بعين الاعتبار كل هذه الإجراءات من أجل أن يقيم فهما وتفسيرا نقديا تاريخيا صحيحا لهذه الأعمال الأدبية.

وبناء عليه يمكن التأكيد على أن المنهجية النقدية التاريخية تعتمد في بعض مساراتها الإجرائية، على محاولة الكشف عن العناصر الفنية المتمفصلة في ثنايا

---

[1]– ينظر: سمير سعيد حجازي: مناهج النقد الأدبي المعاصر، الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 2007، ص190.

[2]– ينظر:نفسه ، ص: 191.

الأنساق التاريخية المتوارية في الإبداعات الأدبية، مما لا يعني أنها تركز كلية على الاعتداد بالجوانب الفنية؛ بل على العكس فهي تأخذ بتحليل الجوانب التاريخية المتمفصلة في ثنايا الإبداعات الأدبية، من منطلق أن النشاط النقدي قائم: « دائما على علاقة جدلية بين النشاط الأدبي والنشاط النقدي »[1]، لتبقى الأحكام التي يقدمها الناقد من خلال دراسته للنصوص الأدبية أو لأصحابها، إنما تمثل واحدة من الأحكام الكثيرة التي سجلها التاريخ ضمن فترة تاريخية محددة عليهما، ومن ثم يتوجب في: « النقد التاريخي أن يضعه الناقد بجانب الأحكام الأخرى وألا يعطيه قيمة أكثر مما لأمثاله من الأحكام »[2]. وضمن سياق هذا الالتزام **النقدي التاريخي** يكون لزاما عليه تمثل الأطر **الموضوعية والعلمية** في تفسير **تكوينية الوقائع الأدبية**، حتى لا يسقط في ما شابته الظروف أو الملابسات، هذا ما يمنحه في جانب آخر أن يقدم أحكاما نقدية تاريخية موضوعية من خلال تفسيره للإبداعات الأدبية عبر ظروفها وأوضاعها المصاحبة لها، والتي تبقى لها علاقة مباشرة بالوقائع التاريخية، من خلال تلك الظروف والأوضاع التي أحاطت بمبدعيها، إضافة إلى تلك العلاقات التي كانت سائدة بين أصحابها وأصحاب النتاج الأدبي، عن سياقاتها التاريخية والاجتماعية والنقدية السائدة، أو تفسيرها بعيدًا عن مواقف الحياة الثقافية المحددة تاريخيا. من أجل ذلك يجب على **الناقد الأدبي التاريخي:** « ألا يقف عند حدود وصف الوقائع الأدبية في علاقاتها المتبادلة، إنما ينبغي عليه دراسة تلك الوقائع من خلال حركتها وتغيرها والنظر

---

[1]– **محمد مصايف: دراسات في النقد والأدب، الشركة الوطنية للنشر، د.ط، الجزائر، 1981، ص: 35.**

[2]– **ينظر : عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي، ص: 291.**

إليها على أنها كل **متماسك الأجزاء**...كما أن تفسيرها مشروط بارتباطها بالوقائع الأخرى ومستمد من ماضيها باعتبار أنها خاضعة لصيرورة معينة »[1]، فربما تبقى تشكل هذه الأطر الإجرائية التي تعتمدها المنهجية النقدية التاريخية في تفسير الوقائع الأدبية إطارا أساسيا يؤطر لرؤية نقدية أدبية جديدة؛ فما الدور النقدي التاريخي الذي تنهض عليه هذه المنهجية في جوانب أخرى من الإبداعات الفنية ؟

-ملامح النقد التاريخي:

إن العودة إلى تتبع مسارات **النقد العربي**، يمكن تلمس بعض ملامح النقد التاريخي، ذلك أنه **عاصر المنهج الفني** في نشأته وتطوره؛ بل وكثيرا ما تداخلَ الثاني مع الأول، ومن ثم أخذ أدوارً ريادية ووظيفية في الوقت نفسه. فمعلوم أن **النقد القديم** قامت رؤيته النقدية على قضية الذوق الفني، لكن هذا لم يمنع بعض النقاد من تتبع الرؤى النقدية الفكرية السائدة في تلك الفترة، بحيث كان البعض منهم يوازن بين: « شاعر وشاعر آخر في المستوى الشعري أو في الاتجاه العام، أو في بعض المعاني الخاصة...فهذا لون نقدي ساذج من المنهج التاريخي القائم على المنهج الفني »[2]. هذا اللون من النقد تجلى في بعض كتابات **النقاد القدامى** من بينهم " **الجاحظ** "، حيث إنه **جمع بين المنهجين**، من خلال استحضار **التذوق الفني مع الإطار التاريخي**، وقد برز ذلك وبوضوح في قضية التدوين والتحقيق في النصوص الأدبية من خلال ردها لأصحابها، مع التشديد بذكر المقامات

[1]- **سمير سعيد حجازي: مناهج النقد الأدبي، ص: 190.**

[2]- **ينظر: سيد قطب: النقد الأدبي أصوله ومناهجهن ص: 172.**

والمناسبات التي ظهرت فيها هذه الأعمال الأدبية، فكل هذه الإجراءات تندرج ضمن مسار المنهجية التاريخية، في حين أن تحديده للأطر اللغوية والبلاغية للإبداعات يندرج ضمن إطار المنهجية الفنية، مما يعني أن – **الجاحظ** – اعتمد عليها في بناء فهم وتفسير منتجين لكثير من القضايا الأدبية والنقدية في تلك الفترة، ومن ثم يمكن التأكيد على أن الكتابات النقدية القديمة كانت جلها قائمة على رؤية نقدية فنية؛ لكن هذا لم يمنع – كما قلنا – من أن نجد ضمن هذه الكتابات تمثلات للمنهج التاريخي، من قبيل: إقامة الموازنات والتحقيق للمخطوطات الأدبية والنقدية، فهم بذلك تمثلوا التأرخة الفنية لمختلف القضايا النقدية والظواهر الأدبية، بمحاولة فهما وتفسيرها من خلال ردها إلى عصورها التاريخية والأدبية الحقيقية، وبالمقابل فقد أخذ المنهج التاريخي في العصر الحديث الأهمية العلمية والنقدية التداولية بين كثير من نقاد الحركة النقدية الحديثة من بينهم: **الرافعي، الزيات، زيدان** وغيرهم، ذلك أن دراساتهم كانت أقرب إلى الجمع والتوثيق، أكثر منها إلى التحليل النقدي.

ومما سبق يمكن القول إن رؤاهم النقدية شكلت بداية حقيقية في تمثل المنهجية النقدية التاريخية ضمن الساحة النقدية الأدبية الحديثة، بحيث توقفوا عند دراسة: « عصور الأدب والظروف السياسية والاجتماعية والعلمية والاقتصادية، وتحدثوا عن آثارها في الأدب، في موضوعاته وأسلوبه وتعبيره، درسوا شيئا من الشخصيات الأدبية في كل عصر »[1]، لكن هذا لم يمنع من أن يأخذ المنهج

[1]– سيد قطب: النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص: 186.

النقدي التاريخي طريقه الصحيح مع كوكبة من النقاد المحدثين، لعل من أبرزهم " **طه حسين** " من خلال كتابه: { ذكرى أبي العلاء} ، و" **أحمد أمين** " في سلسلته الموسومة بـــ: { فجـــر/ ضحى/ ظهر الإسلام }، و"**عباس محمود العقاد** " من خلال كتابه { شعراء مصر وهيئاتهم في الجيل الماضي } لتتوالى بعد ذلك، الكثير من هذه الدراسات النقدية القائمة على الرؤية النقدية التاريخية، مما جعل في جانب آخر المنهج التاريخي ينموا نموا علميا ومعرفيا ونقديا، ضمن ساحة النقد الحديث.